مدرسة الإسكندرية

في خلق الإنسان

للقديس باسيليوس رئيس أساقفة كبادوكية (٢)

القمص لوقا يوسف رزق

إن لم تؤمنوا فلن تفهموا

العدد الثالث - ٢٠٠٩

مجلة مدرسة الإسكندرية

عدد ٣

في خلق الإنسان (٢)
للقديس باسيليوس رئيس أساقفة كبادوكية

ترجمة: القس لوقا يوسف

في خَلقِ الإنسان (٢)

للقديس باسيليوس رئيس أساقفة كبادوكيَّة

ترجمة: القس لوقا رزق

مقدمة المترجم

في العدد السابق قمنا بنشر ترجمة العظة الأولى التي تحدَّث فيها القديس باسيليوس عن خلق الإنسان (تك١) ونقوم في هذا العدد بنشر ترجمة العظة الثانية والأخيرة في تفسير خلقة الإنسان.

يستهل القديس باسيليوس حديثه في العظة الثانية متسائلاً كيف للإنسان، ذاك المخلوق الفاني والترابي، أن يكون مخلوقًا عظيمًا. فيقول: [إذا نظرت إلى طبيعتنا منفردة فإنها لا شيء ولا تستحق أيّ شيءٍ، ولكن إذا نظرت إلى الكرامة التي تُوِّج بها، فالإنسان يكون عظيمًا]. ثم ينتقل إلى كيفية خلق الإنسان وأنه لم يُخلق مثل سائر المخلوقات. ويقول إن جميع ما خلقه الله ما عدا الإنسان قد خُلق بمجرد كلمة من الله أما الإنسان فقد شكلته يدا الله كي يكون أداة لتمجيد الله.

بعد ذلك، يعلِّق على الآية «أثمروا واكثروا واملأوا الأرض». ورغم أن هذه الآية وجهها الله لجميع المخلوقات العاقلة وغير العاقلة إلاَّ أن القديس باسيليوس يميِّز بين الإثمار بالنسبة للإنسان وبالنسبة لباقي الحيوانات.

ويخصص القديس باسيليوس جزءًا كبيرًا لشرح معنَى اليوم السابع: «فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل»، وسرَّ اختيار هذا العدد وعلاقته بالمجيء الثاني.

ويستطرد القديس باسيليوس خاتمًا حديثه عن الإنسان، ناصحًا إياه أن يتذكَّر هذه الآية «وجبل الرب الإله آدم ترابًا من الأرض» وأن يضع ضآلته نصب عينيه دومًا عندما يأتيه فكر الكبرياء أو يستشيط غضبًا. وينتقل للحديث عن تكوين الإنسان المميِّز له عن سائر المخلوقات. وينهي حديثه قائلاً: [إذا كنا نُريد الحديث فقط عن ذواتنا المخلوقة بواسطة اللّه، فلا يكفينا اليوم برُمته].

تم ترجمة النص عن كتاب:

St Basil the Great,*On the Human Condition*, translated and introduction by Nonna Verna Harrison, St. Vladimir's Seminary Press, Crestwood, New York, 2005, pp. 49-64.

نص العظة الثانية

« في الإنسان »

عظمة الإنسان[١]

١. لم يكن سليمان النبي حكيمًا في «كلام الحكمة الإنسانية المقنع»[٢] بل أيضًا في تعاليم الروح القدس، ممجدًا الإنسان فيما قرأناه توًّا (أي في العظة السابقة). لقد صرخ قائلاً: «الإنسان عظيم والرجل الرحيم مُكرَّم»[٣]. أما بالنسبة لي، فقد بحثت عن نفسي بلاجدوى من خلال ما كنت أمتلكه في روحي وما قرأته عن الإنسان في الكتب المقدسة. إذ فكرت؛ كيف يكون الإنسان عظيمًا، هذا الكائن الفاني الذي يخضع لآلاف الأهواء ويحمل شرورًا متنوعة ولا تُحصى منذ لحظة ميلاده حتى شيخوخته. لقد قيل عنه في المزمور: «يارب،أي شيء هو الإنسان حتى تعرفه، أو ابن الإنسان حتى تفتكر به؟»[٤]. إذن، يظن المرتل داود أن الإنسان غير جدير بالتقدير، بينما يمجد سفرُ الأمثال، الإنسان، كشيء عظيم.

٢ ـ يبدو لي أن قصة خلق الإنسان تجيب على مثل هذه الأسئلة. إذ إننا سمعنا أن الرب قد أخذ «ترابًا من الأرض» و«صنع الإنسان»[٥]. من هذه الآية أيقنت أن الإنسان لا شيء وعظيم في الوقت ذاته. فإذا نظرت إلى طبيعتنا الترابية على

---

[١] العناوين الجانبية من وضع المترجم.

[٢] ١كو٢: ٤.

[٣] أما بحسب النص البيروتي المتداول فالآية تكون: «أكثر الناس ينادون كل واحد بصلاحه أما الرجل الأمين فمن يجده». (أم٢٠: ٦)

[٤] مز١٤٤: ٣.

[٥] انظر تك٢: ٧.

حدىً فإنها لا شيء ولا تستحق أي شيء، ولكن إذا نظرت إلى الكرامة التي تُوِّج بها، فالإنسان يكون عظيما.

ماذا يعني هذا؟

«قال الله: ليكن نور فكان نور» [٦]. قارن بين كيفية خلق الإنسان وخلق النور. يقول الكتاب: «ليكن جلد» [٧]. فالسماء العظيمة خُلقت بكلمة الله بعد أن بُسطت فوقنا. النجوم، الشمس، القمر وكل الأشياء التي نتأملها بأعيننا والتي نعتبرها عظيمة كلها قد خُلقت بمجرَّد كلمة من الرب. البحر، الأرض وكل ما عليهما، الحيوانات بجميع أنواعها، النباتات بجميع أشكالها، كل هذه الأشياء قد خُلقت بمجرَّد كلمة أيضًا.

ولكن، كيف خُلِق الإنسان؟

لم يقل الله: «ليكن الإنسان» مثلما قال: «ليكن جَلَد»، هكذا أنت ترى أن الإنسان لم يُخلق مثل باقي المخلوقات. فَخَلْقُ الإنسان هو فوق النور، فوق السماء، فوق الأجرام السماوية بل وفوق كل شيء. إن جسدنا نال كرامة أن يُصاغ كليًّا بواسطة يدي الله. لم يأمر الله ملاكًا، وليست الأرض هي التي ولدتنا تلقائيًا كما تلد بعض الحشرات. لم يُخبر القوات الملائكية التي تخدمه أن تفعل هذا أو ذاك. لكن بيده الخاصة، كفنانٍ، أخذ من تراب الأرض وشكَّل الإنسان. حينما تتأمل ما أخذه الرب، ستُدرك ماذا يكون الإنسان؟ لكن لمَّا تتأمل في مَنْ صاغ، ستدرك أن الإنسان عظيمًا. حقًا، فهو لا شيء بسبب المادة التي خُلق منها وعظيمًا بسبب الكرامة التي نالها من الله خالقه.

٣- «وجَبَلَ الربُّ». كيف تأتي هذه الآية بعد أن قيل في الإصحاح الأول: «فخلق[٨] الله الإنسان»[٩]. إن الكتاب المقدس يتحدَّث هنا عن خلق الإنسان

---

[٦] تك١: ٣.

[٧] تك١: ٦.

[٨] الفعل «خَلَق» كما ورد في النص السبعيني هو: ἐποίησεν ويعني «أفعل- أصنع - أخلق».

[٩] تك١: ٢٧.

من جديد، كما لو أننا لم نكن قد تعلَّمنا شيئًا عن الإنسان. تروي لنا القصة أن الرب «جَبَلَ[١٠] آدم ترابًا من الأرض»[١١]. قال البعض إن الفعل «جَبَلَ» قيل عن الجسم والفعل «خَلَقَ» عن النفس. ربما لا تكون هذه الفكرة بعيدة عن الحقيقة. لأنه عندما قال الكتاب: «فخَلَقَ الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه»[١٢]استخدم الفعل «خَلَقَ»، وعندما تحدَّث الكتاب عن وجود الجسم استعمل الفعل «جَبَلَ». فالمرتل داود يعلِّمنا الفرق بين «خَلَقَ» و«جَبَلَ» عندما يقول: «يداك خلقتاني وجبلتاني»[١٣]. لقد خلق الله الإنسان الداخلي وشكَّل أو جَبَلَ الخارجي. فالتشكيل يتناسب مع التراب والخلق يتناسب مع ما هو على حسب صورة الله، ومثلما شُكِّل الجسد خُلِقَتْ النفس.

٤- إذن، بعدما تحدَّث الكتاب عن وجود النفس، يناقش الآن كيفية تشكيل الجسم. أما الرأي الثاني فهو أن الآية الأولى[١٤]قيلت «في البداية» بينما الثانية[١٥]قيلت بخصوص كيفية الخلق. أولاً ذُكِرَ أن الله قد خَلَقَ، وما يأتي بعد ذلك يُخبرنا كيف خَلَقَ. لأنه لو أن الآية كانت قد قالت ببساطة إن الله خلق، لكنت اعتقدت أننا خُلقنا مثلما خُلِقَتْ البهائم، الحيوانات المتوحشة، النباتات والعشب. ولذلك، كي تتجنب بأن تضع نفسك في عداد المخلوقات المتوحشة، فالكلمة الإلهية تعبِّر عن مهارة الله المُحبة والدقيقة في خلقك. «وجَبَلَ الرب الإله آدم ترابًا من الأرض»[١٦]. الآية الأولى تقول إن الله خَلَقَ أما الآية السابقة تُخبرنا كيف خلَقَ. أخذ ترابًا من الأرض وشكَّله بيديه الخاصة.

---

[١٠] الفعل «جَبَلَ» كما ورد في النص السبعيني هو: ἔπλασεν. هذا الفعل يعني أيضًا: «يُبدع – يُشكِّل – يصنع».

[١١] تك٢: ٧.

[١٢] تك١: ٢٧.

[١٣] مز١١٨: ٧٣. انظر أيضًا (أي١٠: ٨).

[١٤] «فخَلَقَ الله الإنسان» (تك١: ٢٧).

[١٥] «وجَبَلَ الرب الإله آدم ترابًا من الأرض» (تك٢: ٧).

[١٦] تك٢: ٧.

تأمل مليًّا كيف جُبلت. فكر في المعمل الذي خرجت منه طبيعتك. إنها يد الله التي تسلمتك. فالذي جُبِلَ بواسطة الرب لا يكون ملوَّثًا بالشر، لا يكون فاسدًا بالخطية ولا يسقط من يد الله. أنت إناء قد شُكِلْتَ بطريقة إلهية وقد خُلِقْتَ بيدى الله، لذلك مجَّد خالقك. أنت لم تُخْلَقْ لأجل شيء آخر غير أن تكون أداة لتمجيد الله، وهذا الكون بأكمله بمثابة كتاب يذيع مجد الله، معلنًا لك ـ أنت يا مَنْ لك عقل تُدرك به الحقيقة ـ عظمة الله الخفية والظاهرة. ولهذا السبب، تذكَّر بعناية ما قد قيل.

معنَى الإثمار بالنسبة للإنسان وللحيوان

٥ ـ «وباركهم الله وقال لهم: أثمروا واكثروا واملأوا الأرض»[١٧]. يوجد نوعان من النمو: نمو الروح ونمو الجسد. نمو الروح هو التقدم نحو الكمال من خلال الأشياء التي تعلمناها بينما نمو الجسد هو التطوُّر الجسدي من الصغر إلى القامة الطبيعية.

وهكذا، قيل «أثمروا» للحيونات غير العاقلة فيما يخص نمو وإكمال الجسم، فيما يخص إتمام الطبيعة. أما بالنسبة لنا، فقد قيل «أثمروا» بحسب الإنسان الداخلي، بحسب التقدم الذي يُعد نموًّا نحو الله[١٨]. وهذا ما أكد عليه بولس الرسول قائلاً: «أنا أنسى ما هو وراء وأمتد إلى ما هو قدام»[١٩].

يقصد بهذا: النمو في البصيرة، اكتساب التقوَّى، المُضي قُدمًا نحو الأفضل. كما كان إسحق الذي كُتبت عنه هذه الشهادة: «وكان يتزايد في التعاظم حتى صار عظيمًا جدًا»[٢٠]. فإنه لم يبقَ صغيرًا في النمو، لكنه تقدَّم دائمًا عابرًا إلى الأشياء العظمى. لقد انتقل إلى أعمال الفضيلة وعبر من خلال التحكم في النفس بخُطى واسعة ووصل إلى الاستقامة ومن هنا صعد إلى

---

[١٧] تك١: ٢٨.

[١٨] هذا هو الكمال الذي يدعو إليه القديس باسيليوس، فالكمال هو الصعود المتواصل نحو الله.

[١٩] في٣: ١٣.

[٢٠] تك٢٦: ١٣.

البسالة، كما يرتفع الإنسان البار إلى ذروة قمة الصلاح. وبهذا، فإن «الإثمار» هو «النمو» نحو الله والكمال بحسب الإنسان الداخلي.

«اكثروا». هذه البركة تخص الكنيسة. ليتنا نكرز بخلاص الإنجيل إلى كل الأرض.

«اكثروا». إلى مَنْ قيلت؟

إلى أولئك الذين وُلِدوا حسب الإنجيل.

«واملأوا الأرض». املأوا الجسد الذي أخذتموه لخدمة الأعمال الحسنة. ليت العين تمتلىء برؤية أعمال التقوى، واليد بممارسة أعمال البر. ليت القدميْن تقفان مُسْتَعِدتيْن لزيارة المريض وتسيران نحو الأعمال اللائقة بالله. فليكن كل استخدام أطرافنا مملوءًا بأفعال حسب الوصايا. هذا هو ما يقصده الكتاب حينما قال: «واملأوا الأرض».

٦- «وقال الله: إني قد أعطيتكم كل شجرٍ فيه ثمر يُبزر بزرًا لكم يكون طعامًا»[٢١]. لم يقل: «إني قد أعطيتكم السمك طعامًا، وأعطيتكم البهائم، الزحَّافات والدّبابات». لأنه لم يَخْلِقْ هذه الأشياء لهذا الغرض، كما يقول الكتاب المقدس. فالشريعة الأولى وهبت التمتع بالثمار، لأننا أُعتبرنا مستحقين للفردوس.

فما هو السر المُخفى هنا؟

لك قد أُعطي، كما يقول الكتاب، الوحوش، الطير، الثمر والعشب الأخضر.«كل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية، أعطيت كل عشب أخضر طعامًا»[٢٢]. حقًا، نحن نرى حتى الآن وحوشًا عديدةً لا تأكل عشبًا أخضر. فما هو نوع الثمر الذي يتغذَّى عليه النمر والأسد كذلك؟.

---

[٢١] تك١: ٢٩.

[٢٢] تك١: ٣٠.

هذه الحيوانات جميعها كانت تتغذَّى على الثمر، إذ إنها كانت خاضعة أيضًا لقانون الطبيعة. لكن، عندما غيَّر الإنسان عاداته وتخطَّى الحدود المعطاة له، أعطاهم الرب، بعد الطوفان، أن يتغذوا على الطعام بجميع أنواعه إذ إنه كان عالمًا أن الإنسان سيصير مسرفًا. «كل دابة حية تكون لكم طعامًا كالعشبِ الأخضر. دفعت إليكم الجميع»[٢٣]. وبهذا الامتياز وُهِبت باقي الكائنات الحية الحرية لتأكل كل شيء.

٧- لكن في آخر الزمان سيكون الإنسان مثلما كان في الخلقة الأولى. سيعود إلى حالته الأصلية، رافضًا الشر، وتلك الحياة المليئة بالهموم، وعبودية النفس المنغمسة في اهتمامات الحياة الأرضية. سَيعْدِل عن كل هذه الأشياء، سيعود إلى حياة الفردوس التي لا تُستعبد بشهوات الجسد، تلك الحياة الحرة، الحياة الحميمة مع الله وسيحيا حياة الملائكة.

لقد قلنا هذه الأمور، ليس لأننا نرغب أن نستثني استعمال الطعام الذي منحه الله لنا، بل لكي نبارك ذاك الوقت الماضي. وكما كانت الحياة بدون حاجة إلى المزيد، إذ في بداية حياة الإنسان كان يحتاج إلى القليل من الأشياء ليحيا. فتنوع النظام الغذائي كان بسبب دخول الخطية. لأنه منذ ذلك الحين الذي جُرِدنا فيه من مباهج الفردوس الحقيقة، اختلقنا لأنفسنا مباهج زائفة. وبما أننا لم نعد نشاهد شجرة الحياة بعد ولم نعد نضع افتخارنا في السموات، أُعْطِي لنا طباخون خبازون، فطائر متنوعة، روائح عطرية وأشياء أخرى من هذا القبيل تعزينا في نفينا من الفردوس.

اليوم السابع هو يوم الراحة

٨ - «فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل»[٢٤]. إن المتخصصين في علم الرياضيات والدراسين لمثل تلك العلوم يعتبرون أن هذا العالم شيء عظيم يقولون إن الرقم سته يرتبط بخلق العالم، بسبب أنه يُنتج

---

[٢٣] تك٩: ٣.

[٢٤] تك٢: ٢.

أشكال رقمية عديدة وهو كامل في عناصره أيضًا. ولتجنب الحديث عن هذا الموضوع الواسع والابتعاد عن موضوعنا الرئيسي، سأتوجه إلى ملاحظات أكثر سهوله في الفهم. ولكن إذا كان هناك ثمة شخص خبير في هذه الموضوعات، فليعلم أننا نمتلك كنزًا هذه الموضوعات أيضًا. ولذلك إذا كان علم الحساب شيئًا ذا أهمية، فيوجد هنا مبادئ علم الحساب.

ولأننا نعتبر أن هذه الأشياء نابعة من حكمة هذا العالم، فإننا لا نفتخر باختلاسنا أمورًا صغيرة من أولئك الدراسين،إذ إن هذا العالم قد خُلق بكلمة الله. والآن، فلنبين لهؤلاء أننا نأخذ بعين الاحتقار تلك الأمور التي يبحثون عنها بلهفة، فضلاً إلى أن نظريتهم عن هذا العالم ليست سهلة الفهم لكل الناس. والكنيسة المحتشدة هنا لا تنتظر أي نظريات بحثيَّة بل تبحث عن الحلول للمشاكل برؤية تعليمية.

اليوم السابع في الكتاب المقدس

٩- اليوم السابع، أي، يوم السبت كان جدًا مكرمًا. وكان شعب اليهود يكرِّم العدد سبعة الذي كان يُحدِّد أعياد المظال، الأبواق ويوم الكفارة[٢٥]، وكان أيضًا يوقِّر السنة السابعة التي كانوا يسمونها «سنة الإبراء» أو «سنة الإطلاق»[٢٦]. لأنه عندما كانوا يمتلكون أرض الميعاد[٢٧] كان يُسمح لهم أن يزرعوا الأرض خلال ست سنوات وفي السنة السابعة يجب أن يمتنعوا عما كان ينبت من ذاته.

كان العبراني يظل عبدًا لمدة ست سنوات وفي نهاية السنة السادسة أي في أول السنة السابعة كان يجب أن يطلق حرًّا[٢٨]وكان يُكسر الأسر في السنة

[٢٥] انظر لا٢٣: ٢٤-٣٦، عد٢٩: ١.

[٢٦] انظر تث١٥: ١-٣.

[٢٧] انظر لا٢٥: ٢-٥.

[٢٨] انظر خر٢١: ٢.

السبعين[٢٩]. وهناك أمور تخصنا أيضًا. يقول الكتاب: «الصديق يسقط سبع مرات ويقوم»[٣٠]. أخنوخ، السابع من آدم، لم ير الموت[٣١]. هذا هو سرُّ الكنيسة: موسى، السابع من إبراهيم، استلم الشريعة التي هي تغيير الحياة، والخلاص من الخطيَّة، وتمهيدٌ للحق، وحضور الله، وسلامٌ في العالم ونشر الوصايا. في الجيل السابع والسبعين، بدْءًا من آدم، ظهر المسيح[٣٢].

سرُّ اختيار العدد سبعة

١٠- إن بطرس يعرف سر اليوم السابع وذلك في قوله: «يارب كم مرة يُخطىء إليَّ أخي وأنا أغفر له؟ هل إلى سبع مرات؟»[٣٣] لكننا نرى أن بطرس لا يعرف السرَّ تمام المعرفة. لم يتعلَّم بعد، لأنه مازال تلميذًا «هل إلى سبع مرات؟» تكلَّم التلميذ حسبما كان يعرف، ولم يرفض المعلِّم العدد سبعة بل تخطَّاه إلى الكثرة قائلاً: «لا إلى سبع مرات بل إلى سبعين مرة سبع مرات»[٣٤]. لماذا لم يقل بطرس: «إلى ست مرات» أو «إلى ثماني مرات» بل قال: «إلى سبع مرات»؟ ولماذا لم يجاوبه الرب: «إلى مئة مرة مئات مرات» بل ضاعف العدد سبعة. لم يوجه بطرس سؤاله للمسيح بطريقة مختلفة ولم يخرج الربُّ عن قاعدة العدد سبعة. لقد لاحظ بطرس أن تلك القاعدة كانت تقليدًا قديمًا، إذ كان اليوم السابع يحمل صورة مؤكدة لغفران الخطايا، والسبت إشارة إلى الراحة الكاملة. فبطرس يصل إلى سبع مرات أما الربُّ فإلى سبعين مرة سبع مرات.

---

[٢٩] انظر إر٢٥: ١١-١٢، ٢٩: ١٠.

[٣٠] أم٢٤: ١٦.

[٣١] انظر تك٥: ٢٤.

[٣٢] انظر لو٣: ٢٣-٣٨.

[٣٣] مت١٨: ٢١-٢٢.

[٣٤] مت١٨: ٢٢.

نجد أيضًا أن الخطية انتُقِمَ منها سبع مرات، أليس مكتوب: «كل مَنْ قتل قايين فسبعة أضعاف يُنتقم منه» [٣٥] ليس ثمانِ مرات بل سبع.

فما هو السبب في اختيار العدد سبعة؟

انتظر قليلاً وستكتشف السرَّ. إن أول خطية انتُقِمَ منها سبعة أضعاف بينما نجد أن الخطية الثانية هي قتل لاَمَكَ: «إنه يُنتقم لقايين سبعة أضعاف وأما لِلاَمَكَ فسبعة وسبعين» [٣٦]. إذا كان الغفران بالنسبة لبطرس حتى إلى سبع مرات، كما أنتُقم لقايين، فمغفرة الرب حتى إلى سبع وسبعين مرة، مثلما كانت عقوبة قتل لاَمَكَ سبعة وسبعين مرة. كلما كان التعدِّي عظيمًا كلما كانت عطية النعمة عظيمة، وكلما كانت الخطية صغيرة كلما كانت المغفرة قليلة لأن: «الذي يُغفر له قليل يحب قليلاً» [٣٧] وأيضًا: «حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جدًّا» [٣٨].

إذن ما هو السرُّ؟

قيل عن اليوم الثامن إنه زمن الدينونة، الزمن الذي سيعاقب فيه الخاطئ سبعَ مرات والخاطئ جدًّا سبعًا وسبعين مرة. بينما سيُكرَّم الإنسان البار سبع مرات والبار جدًّا سبعًا وسبعين مرة. فعطف الله يُرينا لمحة عن الأشياء العتيدة من خلال الرموز ولكن في زمن المجيء الثاني ستكون الحقيقة واضحة وظاهرة، وسينكشف ما يستحقه كل واحد. وهكذا، فإن الرب الإله سيمنحنا، نحن الخطاة، محو ديوننا سبعة أضعاف إذا ترجيناه بالاعتراف والتوبة. ولهذا، مادمنا نعرف هذا اليوم الرهيب ونلنا مغفرة الخطايا، فلنندم بالتوبة عن أخطائنا التي اقترفناها، ولنحطم خطايانا حتى نتجنب مضاعفة ديوننا.

---

[٣٥] تك٤: ١٥.

[٣٦] تك٤: ٢٤.

[٣٧] لو٧: ٤٧.

[٣٨] رو٥: ٢٠.

علاقة اليوم السابع بالمجيء الثاني

١١- «فاستراح الله في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل» [٣٩]. لم يكن في ذلك اليوم أي عمل من أعمال هذا العالم، ولا زيجات، ولا مهام ولا أي أعمال زراعية. لكن (في المجيء الثاني) ستصاب الأرض كلها برهبة، ستكون الخليقة كلها في اضطراب لم يسبق له مثيل. سيكون الصالحون مهمومين على معرفة المصير الذي ينتظرهم. حتى إبراهيم سيجتاحه القلق، ليس لأنه سيعُاقب بجهنم، بل سيفكر في أي مرتبة سيكون؛ الأولى، الثانية أم الثالثة. سيأتي الرب من السموات، وستشق السموات، ستكشف القوة عن ذاتها وسترتعد الخليقة بأسرها. مَنْ لن يرتجف من شدة الخوف؟ ولا حتى الملائكة. ستكون الملائكة حاضرة لا ليقدموا لله حسابًا، بل سيدفعهم ظهوره الإلهي إلى الخوف. ألا تسمع ما قاله إشعياء: «ليتك تشق السموات وتنزل من حضرتك تتزلزل الجبال» [٤٠] في هذا اليوم سيتجمد البحر، سيتوقف الكون وسيغلب الموت على الطبيعة، ثم سيُختطف الأبرار وستصبح لهم السحب بمثابة مركبات وسترافقهم الملائكة وكالنجوم سيرتفعون مثل النجوم من الأرض نحو السماء، بينما سيُقيَّد الخطاة بثقل خطاياهم.

وفقًا لذلك، فإن رقم سبعة رُمز له أيضًا باليوم السابع هذا: «فاستراح الله في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل». في هذا اليوم لن يكون هناك أية هموم أرضية، ستضعف شهوات الشباب، لن يكون هناك أي نيَّة للزواج أو أيَّة رغبة في الانجاب أو أي اهتمام للمال. أنسيْتَ، أيها الجشع، حافظةَ نقودك؟ أنسيْتَ الأرضَ أيُّها المالك؟ وأنت أيها المولع بالشهرة، أنسيْتَ المجدَ؟ مثل هذه الاهتمامات أُقصيت من العقل. ستقف كل الأنفس أمام الديان الرهيب. لأن الخوف سيطرد كل شهوة توطنت في أرواحنا. وحيثما يوجد خوف الله، ستزول

---

[٣٩] تك٢: ٢.

[٤٠] إش٦٤: ١.

آثار الشهوة من أفكارنا. حقًا، إن اليوم السابع، يوم المجيء الثاني، هو مثال حقيقي لليوم السابع، يوم الراحة.

ضآلة الإنسان وعدمه

١٢- «وجَبَلَ الربُّ الإله آدم ترابًا من الأرض»[٤١]. لم يَكْمُل خلق العالم؛ ولكن قيل: «خَلَقَ الله الإنسان واستراح من جميع عمله» وبعد أن استراح، يعلِّمنا الكتاب المقدس كيف خلق الله الإنسان: «وجَبَلَ الربُّ الإله آدم ترابًا من الأرض».

لا تخف عندما تسمع كلمة «تراب». لا تحكم على الإنسان بمظهره. لماذا تعتبر ذاتك عظيمًا؟ عندما تأتيك أفكار تُدخل الكبرياء إلى قلبك، تذكَّر كيف خُلقت: «وجَبَلَ الربُّ الإله آدم ترابًا من الأرض». متى تستطيع نسيان ذاتك. أتنسى ذاتك عندما تبتعد عن الأرض. وإذا لم تنفصل عن الأرض، ولكن تبقى متمسكًا بها، فسِر على الأرض، استرح في الأرض، أصدر حكمًا على الأرض، لأنه حقًا أي شيء تفعله على الأرض سواء كان عظيمًا أو تافهًا، ضع ضآلتك نصب عينيك.

هل أنت عنيف وسريع الانفعال؟ من أين يأتيك الغضب؟ أمِنْ الخزي؟ ألم تستطِع أن تصغي إلى كشف ضآلة تكوينك؟ هل استشاط الغضب فيك في الحال؟ هل تُباري في قول شيءٍ أسوأ مما سمعته؟ اطرح نظرك ودع الغضب يكف عنك. انظر إلى الأرض وأدخلها إلى قلبك.

فالإنسان هو أكثر نبلاً من الأرض التي تطأها أقدامه. لأني، بعد أن فهمت طبيعتي، أدرك مَنْ أكون ومِنْ أين أتيت. ولكن، إن التذكُّر بأننا قد خُلقنا من الأرض لا يسمح لغضبنا بأن يثور أبدًا. فليت الأرض بتواجدها وبتذكرها الدائمين تكون حليفة للعقل.

---

[٤١] تك٢: ٧.

عندما تركض في الأرض بدافع الطمع، تذكَّر في قلبك كيف جُبلت. فكر أنك ستتحل في الأرض وسيتوقف جنون الشهوة «لأنك تراب وإلى تُرابٍ تعود»[٤٢]. تذكَّر أن أعضاءَك التي تنبض بالحياة الآن سوف تتعفَّن في الأرض عما قريب وسوف تتلاشى شهوات الجسد. تذكَّر طبيعتك حتى ينقطع عنك كل اندفاع نحو الشر. ليت هذا التذكر يكون حماية لنا ضد كل خطيَّة.

«وجَبَلَ الربُّ الإله آدم ترابًا من الأرض». عظيم هو التواضع الذي يُذكرنا بطبيعتنا. إذا كان قد قيل: إن الله جَبَلَ الإنسان سمائيًا، متى كنا ننظر ذاك الشيء الذي يذكِّرنا بطبيعتنا؟ ليتنا نضع تذكُّر عدمنا وفنائنا نصب أعيننا وأن يكون تحت أقدامنا. انحنِ نحو الأرض وأدرك أنك جُبلت من الأرض ومن شيء تطأه الأقدام.

الإنسان عالَمٌ صغير

١٣- «وجَبَلَ الربُّ الإله آدم ترابًا من الأرض». إن الفعل «جَبَلَ» لا يُظهر لنا على الفور عمل الله الفني بخصوص الإنسان. «وجَبَلَ الربُّ»: هل جَبَلَ الرب الإنسان على نفس طريقة أولئك الذين يشكلون الطين أو الذين يسبكون البرونز؟ ولكن تشكيل تمثال أو قوالب الجبس لا تتعدَّى غير تقليد الشكل الخارجي. أنت رأيت كيف تُصور التماثيل بوصف مدقْقَ. فتمثال الجندى يعبِّر عن الشجاعة، وعندما يُصور المعدن على شكل امرأة فإنه يعبِّر عن نزعة أنثوية. بيد أن جُبلة الله للإنسان ليست على هذا الطراز، فنشاطه الإبداعي صمَّم كل مكوناته بدقة متناهية مبتدئًا من داخل الإنسان.

إذا كان هناك متسع من الوقت، لكنت قد أوضحت لك تركيب بُنية الإنسان، وكنت قد تعلمت من ذاتك حكمة الله بخصوصك؛ وهي أنك عالَمُ صغير[٤٣]. كم من الدراسات كُرست لمناقشة هذا الموضوع. فقد تحدَّث كثيرا

---

[٤٢] تك٣: ١٩.

[٤٣] لمزيد من التفاصيل عن تعبير «عالم صغير» "micro cosmos" انظر: مجلة مدرسة الإسكندرسة، السنة الأولى- العدد الأول (يناير -أبريل)، إصدار كنيسة مار جرجس سبورتنج، ص٢٧-٢٨.

أطباء علم وظائف الأعضاء عن مدى تناسق الأعضاء فيما بينها أو العضلات. كل ذلك يأتي شاهدًاعلى عظمة خلقة الإنسان. فأية لغة تقدر أن تصف بدقه معاني هذه الآية «وجَبَلَ الرب الإله».

التكوين المميَّز للإنسان

١٤- خلق الله الإنسان بقوامٍ مستقيمٍ. أعطاك هذه البنية الخاصة يميزك عن باقي الحيوانات.

لماذا؟

لأن النشاط الذي عزم اعطاءَهُ لك هو مميز أيضًا. فالحيوانات هي كائنات تَرعى وطبيعة تكوينهم تتفق مع الغاية التي من أجلها خُلِقت. فالماشية خلقت لتَرعى في المراعي ورأسها منحنية نحو الأرض ونظرها موجه دائمًا إلى بطونها وأعضائها أسفل بطونها واكتمال سعادتها هو أن تملأ بطونها مما تتلذَّذ به.

أمَّا الإنسان فلا ينظر مطلقًا نحو بطنه وهامته مرفوعة إلى السماء حتى يَشْخُصُ إلى ما ينتمي. عيناه لا تنحيان نحو الأرض. لذلك، لا تتصرَّف ضد طبيعتك؛ لا تطلب الأرضيات بل السمائيات حيث يوجد المسيح: «فإن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق، حيث المسيح جالسٌ عن يمين الله»[٤٤]. هكذا أنت جُبلت. أنت وُلِدْت لتنظر إلى فوق حيث الله وليس لتنجذب حياتك إلى الأرض، ولا لتتمتع بشهوات لكن لتحقق المواطنة السماويَّة في الأرض. لهذا السبب يقول الجامعة «الحكيم عيناهُ في رأسه، أما الجاهل فيسلك في الظلام»[٤٥].

لماذا لا تكن عيناه في يديه؟

«عيناه في رأسه» تعني أن ينظر إلى ما هو فوق. لكن، الذي لا ينظر إلى ما هو فوق بل إلى ما هو أرضي، فعيناه منجذبتان نحو الأرض.

---

[٤٤] كو٣: ١.

[٤٥] جا٢: ١٤.

العـين

١٥ـ فضلاً إلى ذلك، فالعينان مستديرتان، الرأس تعلو الكتفين حتى لا تكون منخفضة وتستند على دعامة جديرة بالثناء؛ الرقبة. الهامة موضوعة في الأعلى والعينان تحدقان.

لماذا لم تكن تكفيني عين واحدة فقط؟

عينان تحل كل منهما محل الأخرى، وإذا ضعفت إحداهما فالأخرى تساعدها. ثم، النظر المنبعث من عين واحدة يكون أكثر ضعفاً، بينما المنبعث من منبعين يكون أكثر قوة.

وما الذي يحمي العين؟

يوجد غشاء داخلي، لكن لا يكفي ولا يمكن أن يكون سميكًا. لأنه إن كان سميكًا لصار حاجبًا للرؤية، إذ كان من الضروري أن يكون شفافاً ورقيقاً؟ إذن يوجد غشاء داخلي شفاف وآخر رقيق؛ الأول بَلُّوري والآخر مثل قرنية العين. الغشاء الأمامي ـ أي الجفن ـ يكون أكثر قوة أما الداخلي فيكون أكثر رقة. أما الغشاء الثالث فهو بَلُّوري حتى يملك في ذاته صورة وشفافية كل من الآخريْن.

إن الجفن هو بمثابة وقاء، ستر، غطاء إنه نوع من الملاذ والحصن. كان يمكن لليد أن تحمي العين، لكن قبل وصول اليد إلى العين تكون قد فقدت البصر في ذلك الحين. يقع الجفن قريبًا من العين ومثبَّتًا حتى يتلقى الإصابة ويكون بمثابة حماية لها. فالعين، الوحيدة من أعضائنا، تريد أن لا يمسها شيء وأن يحميها الجفن [...].

١٦ـ إن كنا نُريد الحديث فقط عن ذواتنا المخلوقة بواسطة الله، فلا يكفينا اليوم برُمته. لكن من هذا المثل، أي مثل العين، تكون قد أدركت باقي الأمور.

لكن، مادمنا قد شرعنا في القيام برحلة ضرورية، تؤازرنا الصلوات، فكونوا محفوظين، حتى يتسنى لنا أن نوفي دين ما تبقى من أمورٍ، بنعمة الرب الذي رسم كل ما يخصنا والذي خلقنا بنعمته الخاصة، له المجد إلى دهر الدهور. آمين.